

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨ - سُورَةُ الْكَافِرِ

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال المهايى : سميت بها لاشتغالها على قصة أصحاب الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلى عن الأعداء ، والإغناء الكلى عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية ، وقيل ^(١) إلا أولها إلى قوله (جُرُزًا) وقوله ^(٢) (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ . . .) الآية ^(٣) و (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) إلى آخر السورة . واختار الدانى أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى في فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

(١) [١٨ / الكهف / ١-٨] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٠٧-١١٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ وِعَاجًا)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » قدّمنا أن كثيرا ما تفتح السور وتختتم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)^(١) وتعلما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى . وفي إشار إلى إزال التنزيل من بين سائر نعوته العلية ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه . فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شيء في معناه يماثله . وفي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزل والمنزل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم في سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام . وتعريف الكتاب للمهد . أي الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال ، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيقي باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخيره عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، لمتصل به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ وِعَاجًا » أي شيئاً من العوج ، باختلال في نظمه وتناف في معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيباً للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [٢٨ / القصص / ٧٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)
 [٣] (مَّا كَثِيرٍ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيِّمًا » أى قَيِّمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بمد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قَيِّمًا على الكتب السالفة ، مهيمناً عليها . أو متناهيًا فى الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نبي العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبى عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره (جملة) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

ذهب القاشانى أن الضمير فى (لَّهُوَ) وما بعده لقوله (عَبْدِهِ) قال : أى لم يجعل لعبده زيفاً وميلاً . وجملة قَيِّمًا ، يعنى مستقيماً ، كما أمرَ بقوله ^(١) (فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ) أو قَيِّمًا بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على الكمال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما فرغ من تقويم نفسه وتركيبتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأمرَ بتقويمها وتركيبتها . ولهذا المعنى سمي إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القيمية أى القيام بهداية الناس ، داخلة فى الاستقامة المأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .
 والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ » أى لينذر من خلفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و (البأس) : القهر والمذاب ، وخصصه بقوله (مِّن لَّدُنْهُ) إشارة إلى زيادة هوله . ولذلك عظمه بالتنكير . متملق بـ (أُنزِلَ) أو بعامل (قَيِّمًا) « وَيُبَشِّرَ

(١) [١١ / هود / ١١٢] .

الْمُؤْمِنِينَ « أَى به . وقال القاشانى: أَى الموحدين، لسكونهم فى مقابلة المشركين، الذين قالوا
اتخذ الله ولداً . وقوله تعالى « الَّذِينَ يَعمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » أَى من الخيرات والفضائل
« أَنْ لَهُمْ » أَى بأن لهم ، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة « أَجْرًا حَسَنًا » وهو الجنة
« مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)

« وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب فى قولهم (الملائكة
بنات الله) والنصارى فى (دعواهم المسيح ابن الله) وخصمهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلقاً
بهم، استعظماً لكفرهم . وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى (وَيُبَشِّرَ
الْمُؤْمِنِينَ) للإيدان بكفاية ما فى حيز الصلة ، فى الكفر على أقبح الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ،
إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » أَى ما لهم بالولد، أو باتخاذ، أو بالقول، من
علم . بل إنما يصدر عن جهل مفرط ، وتوهم كاذب ، وتقليد للآباء . لاعن علم يقين ، ويقين .
ويؤيده قوله « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أَى ما أكبرها كلمة « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » وذلك لأن
الولد مستحيل لامعنى له . إذ العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجبى أحدى الذات ، لا ياتله
الوجود الممكن . والولد هو المائل لوالده فى النوع ، المكافى له فى القوة . وجملة (تخرج من
أفواههم) صفة لـ (كَلِمَةً) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم . قال الشهاب : لأن
المعنى : كبر خروجها . أَى عظمت بشاعته وقباحته ، بمجرد التفوه . فما بالك باعتقاده « إِنْ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» أى قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً . وذلك لتطابق الدليل القطعى ، والوجدان الذوقى على إحاطته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَمَّا كَبَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)

« فَلَمَّا كَبَخِيعُ » أى مهلكٌ « نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ »
 يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه . أو متأسفاً عليهم . و(الأسف)
 فرط الحزن والغضب . وفى (العناية) : لعل للترجى . وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه .
 وهى هنا استعارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك
 على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو
 أسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقتة أحبته . فهم بقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً
 عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك - كما قال القاشانى - أن الشفقة على خلق الله والرحمة
 عليهم من لوازم محبة الله ونتأججه . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله
 لقوله (١) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وكلما كانت محبته للحق أقوى ، كانت شفقتة ورحمته على خلقه
 أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفة عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه .
 بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقى . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك
 نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ
 أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضاه ،
 وأقدر على مخالفتها لموافقته .

(١) [٥ / المائدة / ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

« وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى تراباً مستويًا لآبات فيه . بعد ما كان يبهج النظر ، لا شىء فيه يختلف ، رَبُّى ووهاداً . أى نقيها وما عليها ولا نبالى . وفى الآية تسليمة له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأننا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نقيها ، ولا حيف ولا نقص . أو لا تحزن فإننا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و (مِنْ آيَاتِنَا) حال منه و (أَمْ) للاستفهام التقريرى بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلها منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار) - أى إنكار حسابهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى - فيه بُعد . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلا لتقرير التعجب منها . و (الكهف) الغار الواسع فى الجبل . و (الرقيم) اسم كلبهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ أَوْىءُ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

« إِذْ أَوْىءُ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ » أى خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حالمهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم « فَقَالُوا رَبَّنَا » أى من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى من خزانة كبريتك وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَضْرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

« فَضْرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أى أنماهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخبير، ولا دعوة الداعي الخبير ، فى الكهف سنين ذوات عدد . أى كثيرة أو معدودة . قال الشهاب : (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أنماهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إما من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شُبِّهَ ، لاستغراقه فى نومه حتى لا ينتبه بمنبهه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ نِعَمًا أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)

« ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ نِعَمًا » أى أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » أى لنعلم واقمًا ما علمنا أنه سيقع . وهو أى الحزبين المختلفين فى مدة لبثهم ، أشد إحصاءً ، أى إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فيتم لهم رشدهم فى شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى)

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » شروع في تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و (الحق)

الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ » أى بوحدانيته إيماناً يقينياً علمياً على

طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك « وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى » أى بترجيح جانب الله على

جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية - وهم الشباب - أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من

الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى

ولرسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد روى عن هؤلاء الفتية

روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ،

وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحوارين . فاستجاب لذلك الفتية المنوء

بهم . وخلعوا الوثنية التي عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يقتلهم عن دينهم

أو يقتلهم . فاستخفوا عنه في الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن

الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً

أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ، فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكاً

على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟

فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ (فَأَبْغَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰئِلَةً إِلَى

الْمَدِينَةِ) وكان ورق ذلك الزمان لدولة أهله . فأرسلوا أحدهم يأتهم بطعام . فلما ذهب ليخرج

رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر

ما رأى . ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا ؟

هذا من ورق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريه . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولاً ، وفيه كفاية عن غيره .
وسند كوفي آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصراني من شأنهم .

وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعمًا متوارثًا ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدبتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِن دُونِهِ ۗ إِلٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُوا » أى بين يديه غير مباينين به . و (إذ) ظرف لـ (ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشد المعروف . أى استعارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القاق والخوف ينزعج به القلب من محله ، كما قال تعالى ^(١) : (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) فشبه القلب المطمئن لأمره ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

بالحيوان المربوط في محلّ . وعدّى (ربط) بـ (على) وهو متعدّد بنفسه ، لتزيله منزلة اللازم « فَقَالُوا رَبَّنَا » الذي نعبده « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَنْ نَدْعُوا » أى نعبد « مِنْ دُونِهِ إِلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط في الظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَؤُلَاءِ قَوْمٌ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ عَالِهَةٍ ، لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ

بِسُلْطَنٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

« هَؤُلَاءِ قَوْمٌ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ عَالِهَةٍ » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد

أنهم عبدوها . وفي الإشارة تحقير لهم « لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ » أى على عبادتهم أو إلهيتهم

أو تأثيرهم « بِسُلْطَنٍ بَيِّنٍ » أى حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به .

قال القاشاني : دليل على فساد التقليد ، وتبكيك بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله ،

وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال (١) : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ) أى أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشيء « فَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له في الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون

ببرهان . فهم ظالمون في حق الله ، لا فتراثهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساونه فيها .

ثم خاطب بعضهم بعضاً بقولهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ

رَبَّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا)

« وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدًا إِلَى الْكَهْفِ » أى وإذا اعتزلتم القوم،

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بفضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله ، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو في ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذي لا يطمعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا ، من السكون فيه ، فوات الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد مادعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ » أى ما يغنى عن الطعام والشراب ، بالإمدادات المملوكة والتأييدات القدسية « وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مَرَقًّا » أى ما تنتفعون به . قال المهامبي : يرفق بنفوسكم فيعطيه من لذات عبادته ما ينسبها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالصة عن الأذيات كلها . وجزمهم بذلك لمنصوع بيقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تبييه :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأمى بأهل الكهف في الاعتزال ، إذا اضطهد المرء في دينه وأريد على الشرك . ومن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمام الغزالي حيث قال في (إحيائه) : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أى ولاريب في مشروعيته فراراً من الفتن .

فقول السيوطي في (الإكمال) : في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون النيران والجبال عند فساد الزمان - كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه . وأى عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية في الاضطهاد فحسب ، فافهم ولا تغل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)
 « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » أى صعدت عند طلوعها « تَزَاوَرُ » أى تميل « عَنِ
 كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ الْيَمِينِ » أى يمين الكهف « وَإِذَا غَرَبَتْ » أى هبطت للغروب
 « تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ
 فِي فِجْوَةٍ مِنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس .
 وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال . فإذا طلعت الشمس
 كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله . فيقع شعاعها على جانبيه . يحلل عفونته
 ويعدل هواه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم . قال الشهاب : (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع .
 أى قطع الاتصال بهم لثلاث تغبر أبدانهم . وقولُ الفارسيّ إنه من قرض الدراهم ، والمعنى أنها
 تعطيمهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد - مردود ، بأنه لم يسمع له ثلاثي .
 وفي (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعدل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من
 (القرض) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
 اللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء ، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم
 فيه ، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى
 إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه
 « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا » أى ناصرًا يلى أمره فيحفظه من الضلال « مُرْشِدًا » أى يهديه
 إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ،
 وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا
 وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يا مخاطب ، أيقاظًا لا تفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير : ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تطبق أعينهم لثلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

يَنَامُ بِإِحْدَى مَقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي بِأُخْرَى الرِّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمٌ

و (أَيْقَاظًا) جمع يَقِظُ ويقظان . و (رُقُودٌ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول - مردود بما نص عليه النحاة كما صرح به فى (المفصل) و (التسهيل) « وَنَقَلِيَهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ » أى لثلا تناف الأرض أجسادهم « وَكَذَّبَهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ » أى ببناء الكهف أو الباب . وقد شمت برقتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، قال ابن كثير : وهذا فائدة صعبة الأختيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالتيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكنب ، ليهاوهم مع هيبته ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَوِ أُنطَلِغَتْ عَلَيْهِمْ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُغْبًا » أى خوفا يعلأصدرك، لما ألبسوا من الهيبة . فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك - كما قال ابن كثير - لثلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءهاتبارك وتعالى فيهم . لئلا فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ ،
قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ رِزْقٍ مِّنْهُ وَلِيَتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

« وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ » أى وكما أنعمناهم تلك الغومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم
وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيأتهم وأحوالهم شيئاً ، إذ كلاً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً .
قال ابن كثير : وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين . وقوله تعالى « لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ » أى
ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله
تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرّموا به . أفاده الزمخشري .
وبه يتبين أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لحظ أن الغرض من فعله
تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ » أى رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه
أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »
قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر نهار .
ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايى : فنظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ،
ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية ، ظن أنهم لبثوا بعض يوم .
فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالولى يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس
من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشري : جواب مبنى على غالب الظن . وفيه
دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون
خطأ .

« قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بعبدة لبئهم .

كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ عَلِمُوا بِالْأَدْلَةِ ، أَوْ بِالْهَامِ مِنْ اللَّهِ ، أَنَّ الْمُدَّةَ مِتْطَاوَلَةٌ ، وَأَنَّ مِقْدَارَهَا مَبْهُمٌ .
فَأَحْلَاوْا تَعْيِينَهَا عَلَى رَبِّهِمْ . « فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ عَلَى أَى الْمَأْخُذَةِ لِلتَّرْوِدِ .
وَ (الْوَرِقِ) الْفِضَّةُ « إِلَى الْمَدِينَةِ » أَى الَّتِى فَرَرْتُمْ عَنْهَا « فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا »
أَى أَطِيبٌ . « فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أَى فِى الْمُبَايَعَةِ وَاخْتِيَارِ الطَّعَامِ . أَوْفَى .
أَمْرُهُ بِالْتَّخْفِ ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِحَالِكُمْ وَدِينِكُمْ « وَلَا يَشْعُرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا

إِذَا أَبَدَا)

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » يطلعوا على مكانكم « يَرْجُمُوكُمْ » أَى يَقْتُلُوكُمْ بِالْحِجَارَةِ .
« أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ » أَى يَدْخُلُوكُمْ فِيهَا بِالْإِكْرَاهِ الْعَنِيفِ « وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا »
أَى إِذَا صَرَرْتُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ . قَالَ الْقَاسِمَانِ : ظَهَرِ الْعَوَامِ ، وَاسْتِيْلَاءِ الْمَقْلَدَةِ وَالْحَشْوِيَّةِ الْمَحْجُوبِينَ ،
وَأَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَطْبُوعِينَ ، وَرَجْمِهِمْ أَهْلَ الْحَقِّ ، وَدَعْوَتِهِمْ إِيَّاهُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ - ظَاهِرٌ . كَمَا كَانَ
فِى أَوَائِلِ الْبُعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ .

لطائف :

الأولى - قَالَ الزُّخْمَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتِ : كَيْفَ وَصَلُوا قَوْلَهُمْ (فَابْعَثُوا) بِتَدَاكُرِ حَدِيثِ
الْمُدَّةِ ؟ قُلْتِ : كَأَنَّهُمْ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِذَلِكَ . لَا طَرِيقَ لَكُمْ فِى عِلْمِهِ . تَخَذُوا فِى شَيْءٍ آخَرَ
مِمَّا يَبْهُمُكُمْ . انْتَهَى .

وَرَأَى الْمُبَاسِمِيُّ أَنَّ قَوْلَهُمْ (فَابْعَثُوا) مِنْ تَتْمَةِ حَدِيثِ الْمُدَّةِ . قَصَدَ بِهِ تَفْصِيحَهَا . كَأَنَّهُمْ
لَمَّا أَحْلَاوْا تَعْيِينَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِمْ (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْبَسْتُمْ) قَالُوا هَذِهِ الْإِحَالَةُ لَا تَنْفَعُ مِنْ
طَلْبِ الْعِلْمِ بِالْمُدَّةِ . وَلَوْ فِى زَمَنِ أَمْرٍ آخَرَ ، فَاطْلُبُوهُ فِى زَمَنِ حَاجَةٍ لَنَا . وَهِيَ أَنَّ تَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ

بورقكم هذه ثلاثا نوحج إلى السؤال عن المدة. لاسيا في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به،
فيفضى إلى الهلاك .

الثانية - قال في (الإكليل) : قوله تعالى (فَاَبْتَمَوْا) الآية ، أصل في الوكالة والنيابة.
قال ابن العربي : وهي أقوى آية في ذلك .

قال الكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام
بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا في الأكل .

الثالثة - دلّ قوله تعالى عنهم (فَلْيَنْظُرُ آيَهُمْ أَزْكَى طَعَامًا) على مشروعية استجادة
الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط
الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طبياً الاعتناء بجودته وتزكيتها ،
كما فصل في قوانين الصحة .

الرابعة - قال الرازي : (الرجم) بمعنى القتل ، كثير في التزويل كقوله ^(١) (وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَاكَ) وقوله ^(٢) (أَنْ تَرَجُمُونَ) وأصله الرمي ، أى بالرجم وهي الحجارة . ولا يبعد
إرادة الحقيقة في مواده كلها ، زيادة في التهويل . فإن الرجم أخص أنواع القتل . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَأَرْبَبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ يَنْهَوْنَ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا
رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)
« وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى كما أطمناهم وبمناهم لما في ذلك من الحكمة ، أطمنا
عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقدمة العهد « لِيَعْلَمُوا »
(١) [١١ / هود / ٩١] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٠] .

أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا « أَى لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَطَاعَنَاهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ، أَنْ وَعَدَ اللَّهُ بِالْبَيْعِ حَقًّا . لِأَنَّ حَالَهُمْ فِي نَوْمِهِمْ وَانْتِبَاهَتِهِمْ بَعْدَهَا كَحَالِ مَنْ يَمُوتُ ثُمَّ يَبْعَثُ « وَأَنَّ السَّاعَةَ » أَى الْمَوْعُودِ فِيهَا بِالْبَيْعِ « لِأَرْيَبَ فِيهَا » إِذْ لَا يَدُ مِنَ الْجَزَاءِ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ . ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ ، وَعِنَايَةِ قَوْمِهِمْ بِحِفْظِ أَجْدَادِهِمْ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « إِذْ يَتَنَزَّعُونَ يَبْتَغِيهِمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَاهُمْ بُنْيَانًا » أَى عَلَى بَابِ كَهْفِهِمْ بِنْيَانًا عَظِيمًا . كَانَلْحَاتِقَاتِهَا وَالْمَشَاهِدِ وَالْمَزَارَاتِ الْمَبْنِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَ (إِذْ) عَلَى مَا يَظْهَرُ لِي ، ظَرْفٌ لَ (إِذْ كَر) مَقْدَرًا . وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ خْتِمِ نَبْتِهِمْ بِمَا جَرَى بَعْدَ مَمَاتِهِمْ ، إِثْرًا مَا أُوجِزَ مِنْ نَبْتِهِمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ وَالْإِعْثَارَ عَلَيْهِمْ . وَجَمَلُهُ ظَرْفًا لَ (أَعْتَرْنَا) أَوْ لَغَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرُوا - لَيْسَ فِيهِ قُوَّةُ ارْتِبَاطٍ وَلَا دَقَّةُ مَعْنَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى (فَقَالُوا) تَفْسِيرٌ لِمُتَنَازِعٍ فِيهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ، « رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ . إِمَّا مِنْ اللَّهِ ، رَدًّا عَلَى الْخَائِضِينَ فِي حَدِيثِهِمْ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُتَنَازِعِينَ فِيهِمْ عَلَى عَهْدِهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ هِيَ مِنْ كَلَامِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي عَهْدِهِمْ . كَأَنَّهُمْ تَذَاكُرُوا أَمْرَهُمُ الْعَجِيبِ وَتَحَاوَرُوا فِي أَحْوَالِهِمْ وَمُدَّةِ لَبْسِهِمْ . فَلَمَّا لَمْ يَهْتَدُوا أَحْوَالًا حَقِيقَةً نَبْتَهُمْ إِلَيْهِ تَعَالَى « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أَى مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ ، وَهُمْ أَرْبَابُ الْغَلْبَةِ وَنَفُوذِ الْكَلِمَةِ « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا » أَى نَصَلِي فِيهِ ، تَبْرَكَابِهِمْ وَبِعْكَابِهِمْ .

تنبیه :

قال ابن كثير : حكى فى القائلين ذلك قولان (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثانى) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر . لأن النبى ﷺ قال (١) : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخارى فى : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٥ - باب حدثنا أبو اليمان ، حديث

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعقتنا) .

وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين ، مع إirاده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني . والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى (١) (وَقَالُوا لَا تَنْدَرُنَّ ءَالِهَتِكُمْ وَلَا تَنْدَرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادي عليه الرحمة ، في كتابه (الصارم المنكي) بعد إirاده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام في زيارة القبور . وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبي ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرّج . ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله به تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد تقع الميت والدعاء والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

(١) [٧١ / نوح / ٢٣] .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غالط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيماً . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليهما المساجد والسرج ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، ونزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم - كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظم ويبيغضه ، ويعت فاعله ، فلم يعظمه في الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فمعظم الرسول ﷺ أن تطاع أو امره وتصدق أخباره ولا يُقدم على ما جاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما ما يحبه المعظم ويرضاه ويأمر به ويشئى على فاعله ، فهذا هو التعظيم في الحقيقة . والثاني ما يكرهه ويبيغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الراضة معظمين لعلّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبي ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفي المسند^(١) بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيدنا! وابن سيدنا ! وخيرنا ! وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ (عليكم بقواكم ، ولا يستهويكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله . ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ) . وقال ﷺ^(٢) : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال^(٣) : (إن كدتم آتفا لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣١ - باب رجم الجبلي في الزنى إذا

أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة في آخرة حجها .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ (طبعنا) .

يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوٌ يخالف لدين المسلمين ، يخالف للكتاب والسنة والإجماع .
وللبحث تمة مهمة فانظره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون في قصتهم على عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظناً خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا » أى لا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ، إلا جدالاً ظاهراً ليناً غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالى ، وتقويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تمنيف بهم ، في الرد عليهم كما قال (١) (وَجَدِلْتُمُ بِالَّذِينَ هِيَ أَحْسَنُ) فإن الأمر

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة . قيل : المهاراة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة الحاجة مطلقاً . والمهاراة الحاجة فيما فيه مزية أى تردد ، لأنها من (مریت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجماً بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ما عنده ، ينافى مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لا مزية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول - ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجماً بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو في قوله (وَنَامِئُهُمْ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن انصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لا عدد وراءه . كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدة . وأقول : لا يخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لا يخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه في الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية . فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء فى شىء . وجواب بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لقهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية - بعيداً غاية البعد ، وتسكف ظاهر ، وإغراب فى القول . ثم قيل : إن هذه الجملة لاتتمين للوصفية . لجواز كونها حالاً من النكرة ، لأن اقترانها بالواو مسوغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكروه لو لم يُتبع قولهم بقوله تعالى (قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهاناً ظاهراً على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، ردّ العلم إليه تعالى . وإشارةً إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بين وبرهان نير . وإنه إذا أوقفنا على الفمصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إمام نبي ، أو من كان في مدتهم ، أو من تقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسد من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة - فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبي ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحاق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي أنه قال : إن كان - ابن عباس - قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لي الآن .

وبعد كتابتي لما تقدم بمدة ، ووقت على نبئهم في (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما استراه في آخر الآيات فيهم . فسنع لي أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الأكترون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم وبمن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال في (قاعدة له في التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام - مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغى في مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته . إذ لو كان باطلا لردده كما ردها . ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا (قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال (فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا امِرَاءَ ظَاهِرًا) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لثلايق النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب في الذى تركه . أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل في هذ المقام .

الثانى - قال الرازى : ذكروا في فائدة الواو في قوله (وَثَمَانِيَهُمْ) وجوهاً :

الأول - ما ذكروه أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

وثانيها - أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد . وإذا كان كذلك ، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف ، فقالوا : وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون . قالوا : ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات ، وهى قوله ^(١) : (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله ^(٢) : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقَتِحَتْ أَبُوْهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله ^(٣) : (تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا) لأن قوله : (وَأَبْكَرًا) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . (وَوَالثَّمَانِيَةَ) ومعناه ما ذكرناه .

(١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٥] .

قال القفال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى^(١): (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

وقال في (الانتصاف): الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا لكن يقول إنها واو الثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم . ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واو تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو الثامن من قوله (التَّائِبُونَ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لترابط بينها وبين الأولى التي هي (الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها ومواردها؟ كقوله^(٢) (يَا مَعْرُوفُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وكقوله^(٣) (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وربما عدّ بعضهم من ذلك ، الواو في قوله: (تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فالحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول (تَبَيَّنَتْ أَبْكَرًا) لم يستد الكلام . فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث : حكى في (الإكليل عن مجاهد في قوله تعالى : (فَلَا تَعْرَفِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدي : إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة . وقوله تعالى :

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٣] .

(٢) [٩ / التوبة / ٧١] .

(٣) [٣١ / لقمان / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ١ ۖ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا)

[٢٤] (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا)

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ١ ۖ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » في هذه الآية وجوه من المعاني . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول ، فتكون قائلاً بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشيء لا تعلم إلا بإذنه فيه أي إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمته عليه من فعل ، إني فاعل ذلك غداً إلا قائلاً معه إن شاء الله تبرؤاً من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلاً بمشيئته . ولئلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لا تقولن ذلك قطعاً بفعله وبتأله . لأنه ^(١) (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) فلا ينبغي الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) أي أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : (وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وعلى هذه الوجوه كلها فد (لَا تَقُولَنَّ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ في كتاب (الحيوان) : إنما أزم جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليمبق عادة للمتألى ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى ، وعلى أن يكون عبده ذا كراً لله . لأنه عبد مدبر ، ومقلب ميسر ، ومصرف مسخر . وبق وجه آخر . وهو أن المعنى لا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لسكل ما يعزم عليه ويقول . كقوله تعالى ^(٢)

(١) [٣١ / لقان / ٣٤] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣٠] .

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر يبادئ الرأي كما قاله في (الانتصاف) وفي هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان هم بأمرٍ ما في نبدأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر في غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم. فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولاً أولياً. أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله، إذ شاء الله أن تقوله. فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب، إثر ما يوصى إليه النهى إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهى عن استفتاءهم، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسي، أى نسى ما وصى به. وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه.

فدعوى الناصر في (الانتصاف) أنه ليس هو الغرض، وأن الغرض النهى عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى. قصر لآية على أحد معانيها، وذهاب إلى ما هو المشهور في تأويلها، وعدم تعمن في مثل هذا المعنى الدقيق، بل وفي بقية المعاني الأخر التي اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا» أى خيراً ومنفعة. والإشارة، للنبا المتجاور فيه.

تنبيهات :

الأول - روى أنه صلوات الله عليه سئل عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين، فقال: أجيئكم عنها غداً ولم يستثن. فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية. وقد زيف هذه الرواية القاضي - كما حكاه الرازي - من أوجه. والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول. كما ساقه عنه ابن كثير وغيره، والله أعلم.

الثاني - يشير قوله تعالى « وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي » الآية، إلى أن هذا النبا ليس مما تنبئى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه، وابتغاء الرشاد فيه، حتى يتكاف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمتها آيات التنزيل في شأنها .

الثالث - اعترضت هذه الآداب أعنى من قوله تعالى (فَلَا تُمَارِ) إلى هنا قبل تميم نبهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع - روى عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثنى ، وذلك (كما قال القرطبي) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في (الانتصاف) : أما ظاهر الآية فقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حِسُّها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكى عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . ف قيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي (حصول المأمول) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في (مستدرک الحاكم) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثنى إلى سنة) ومثله عند أبي موسى المدينيّ وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجملة فالرواية عنه رضى الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القسيم في (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئاً ولم يستثن ، فله أن يستثنى عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه . والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكير ، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود^(١) وغيره (والله ! لأغزون قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله) . ومنها حديث^(٢) (ولا يمضد شجرها ولا يمتلي خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر) . وهو في الصحيح . ومنها قوله^(٣) ﷺ في صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَبِئُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)

[٢٦] (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ ، وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا »
حكاية لقول أهل الكتاب في عهده ﷺ ، في مدة لبثهم نائمين في كهفهم الذي التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (وَقَالُوا وَلَبِثُوا) قيل : وعليه فيكون ضمير (وَازْدَادُوا) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

- (١) أخرجه أبو داود في : ٢١ - كتاب الأيمان والنذور ، ١٧ - باب الاستثناء في اليمين بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧٧ - باب الإذخر والحشيش في القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس . وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ (طبعقتنا) . (٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة . ولا يخفى ركازة ما ذكر ، فإن الضمير للفتية . ووجه المدول موافقة رؤوس الآي المقطوعة بالحرف المنصوب . ودعوى الأخرية تدقيق نحوي لا تنهض بمثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأبأها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربي يجد بينهما في الطلاوة بعد المشرقين . ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، بياناً للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين - دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية ، فلذلك قال : (وَأَزْدَادُوا تِسْعًا) لنقف على تمديد معنوه ، ومن أين يثبت ذلك؟ وما الداعي لهذا التعمق المشوش؟ والآية جلية بنفسها في دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية ، وبأى منها قالوا: فقد رد عليهم بقوله : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) أي بمقدار لبثهم . فلا تَقْفُوا ما ليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُ وَغَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها ، أي أنه هو وحده العالم به « أَبْصِرْ بِهِ وَوَسْمِعْ » أي ما أبصره لكل موجود ! وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشري : جاء بمبادل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثرها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (أَبْصِرْ بِهِ وَوَسْمِعْ) المنتخب على جواز إطلاق صيغة التعجب في صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى . يعني

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما في الآية . وقد يقال بالوقف .
ينبغي التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُمْ » أي أهل السموات والأرض في خلقه « مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ »
أي يتولى أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ » أي قضائه « أَحَدًا » أي من مكوناته العلوية
والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتديبرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .
قال المهايى : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من
قبيل المسبوع ، فهو أسمع . أو من قبيل البصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جداً . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَنْزَلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

« وَأَنْزَلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ » أي بتبليغ ما فيه . ومنه ما أوحى إليك
من نبا الفتيمة ، فإنه الحق الذي لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشاني : يجوز أن تكون (من) لابتداء الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول
المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بياناً لما أوحى
« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

قال القاشاني : (كلماته) التي هي أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها .
فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول .

والأظهر في معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله (١) (لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ)
وأما هو سبحانه فهو فعال لما يريد « وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أي ملجأ .

(١) [١٣ / الرعد / ٤١] .

وذهب ابن جرير^(١) في تفسير هذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من المهالكين . وذلك أن مصير من خلفه وترك اتباعه يوم القيامة ، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) يقول لأمير لما أوعده بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناها إليك . وقوله (وَأَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) يقول وإن أنت لم تقل ما أوحى إليك من كتاب ربك فتبعه وتأت به ، فنالك وعيد الله الذي أوعده فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله مؤثلاً تتل إليه ، ومعدلاً تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطه بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر في تواريخ المسيحيين ، وعيد سنوي يقام تذكراً لهم ، في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم في الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التي كانت عليها اليونان . وقد رأيت في كتاب (الكنز الثمين في أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) تقتطف منها ما يأتي ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لا يعرف أصلاً ، كما قرأته في بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة : هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجسد . وأسمائهم : مكسيميانوس ومانخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان باليسوع ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية . في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين ، الملك داكيوس .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد أجلبهم المسيحيون كشهداء حقيقيين . فيقام لهم في الكنائس مداًحٌ تشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهدوا ثمّة ، في اليوم الرابع من شهر آب ، المختص بتذكار الأنجوبة التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهداهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية في سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة في التواريخ الكنائسية المدققة . بل إن المؤكد عنهم أن استشهداهم كان في زمن الملك داكيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال : فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتوون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس . وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة ، ليموتوا برضاهم ، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التي كان يتكبتها المسيحيون في ذلك الاضطهاد الوحشي .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهاده هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك في ٤ آب سنة ٤٤٧ في زمن ولاية الملك (ناوضوسيش الصغير) .

ثم قال : ودرج على أفواه الشعوب ؛ أن هؤلاء الفتية ، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكيوس الملك ، لم يموتوا ضمنها ، لاموتاً طبيعياً ولا قسرياً . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتي سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعي سنة (٤٤٧) .

ثم قال : وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل ، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلى ، بعد أن دفنوا في ذلك الغار أحياء أو أمواتاً ، بواسطة خارقة ما ،

وتقلت من مدفهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنطاق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيدوا حقية إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى (تاريخ الكنيسة) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً ، اعتنى الروم واللاتيون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يسلمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة . التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ كاذب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته ، واقتلمه من جذوره ، القرآن الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى^(١) (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف . وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة وتقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها

(١) [١٨ / الكهف / ٥٠] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ،
والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه، وبَيَّنوا صحيحه من حسنه ومنكره
وموضوعه ومتركه . وعرفوا الوضّاعين والسكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك
صيانة للجناب النبويّ والمقام الحمديّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب
أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم .
وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا ، وَلَا تَطْعُ
مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ » أى احبسها وثبتها « مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ »
أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا »
أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر بالمرّة . أو وجدناه غافلاً عنه . وذلك
لثلاثيؤديك إلى الغفلة عنه « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » أى متروكا متهاونا به
مضيئاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن الأمور بالصبر معهم والمنهى عن إطاعتهم ،
بالموصول ، للإيدان بعملية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير^(١) : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبيّ ﷺ جالساً مع خباب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفي رواية ابن زيد^(١) : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ) . وروى مسلم^(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع . فحدث نفسه . فأنزل الله عز وجل (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلى الله تعالى « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » إِمَّا مِنْ تَمَامِ الْقَوْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، وَالْفَاءُ لَتَرْتَبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا ، بِطَرِيقِ التَّهْدِيدِ . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق لا ريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين . ولا يتعمل بما لا يكاد يصلح للتعمل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبيعتهم ، وجوداً وعدمًا - ما لا يخفى . وإمَّا تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٦ و٤٥ (طبعتنا) .

والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل . أفاده أبو السعود . وفي (العناية) : الأمر والتخيير ليس على حقيقته . فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيهه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله (١) « أَسِئِبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مُلُومَةَ » وهذا رد عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالي به حتى نطردهم لذلك ، بعد ما تبين الحق وظهر . وقوله تعالى : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا » وعيد شديد ، وتأكيده للتهديد وتعليل لما يفيد من الزجر عن الكفر . أو لما يفهم من ظاهر التخيير ، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه . فإن إعداد جزائه من دواعي الإيماء والإمهال . وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدي . أى قل لهم ذلك (إنا أعتدنا للظالمين) أى هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم (ب) الظالمين) للتنبية على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ووضع للشئ في غير موضعه . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أى فسطاطها . وهى الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار فى الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط لمنع من الوصول إليه . شبه ما يحيط بهم من جهنم ، بها . يقال بيت مسردق ، ذو سرادق « وَإِنْ يَسْتَفِئُوا » أى من الظمأ لاحتراق أفتدتهم « يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَمْهُلٍ » أى كالحديد المذاب وكعكر الزيت ، وقال القاشانى : من جنس الفساق والغسلين ، أى المياه المتعفنة التى تسيل من أبدان أهل النار ، مسودة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة . ويؤيده قوله تعالى (٢) « وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَ » (يَشْوَى أَلْوَجُوهَ) أى إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثير عزة . وعجزه : لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنَّ تَقَلَّتِ (٢) [١٤/إبراهيم/١٧]

« وَسَاءَتْ » أى النار « مُرْتَفَقًا » أى متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد . وذكره لمشاكله قوله (وَحَسَنْتُ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله (١) .

إِنِّي أَرِقْتُ فَبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفَقًا كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مُذْبُوحٌ
والصاب: شجر مرمر يحرق ماؤه العين . ومذبوح: مشقوق . وفى كتاب (تنزيل الآيات) فى الصحاح : بات فلان مرتفقاً ، أى متكئاً على مرفق يده . وهو هيئة التحزين المتحسرين . فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولالتهكم ، بل هو على حقيقته . كما يكون للتعظم يكون للتحزن . وتمقبه فى (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخد للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يعرجوا عليه . ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)

[٣١] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ، نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبى هذيل الهذلى . وهو فى اللسان فى مادة (ص و ب) .

وروايته هناك (مشتجراً) بدل (مرتفقاً) .

وفى الديوان ١٠٤/١ (نام الخلى) عوضاً عن (إِنِّي أَرِقْتُ) .

ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ « وهو ما رُق من الديباج » وَإِسْتَبْرَقٍ « وهو ما كثف منه » مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْآئِكِ « أى السرر على هيئة المتنعمين » نِعْمَ الثَّوَابُ « أى الجنات المذكورة » وَحَسَنَتْ مَرْفَقًا « أى متسكاً . وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، لآية (١) (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) وآية (٢) (حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مِّثْلًا » أى المؤمن والكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب « زَرْعًا » أى فحصل منهما الفواكه والأقوات ، فكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كَلِمَةً وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا)

« كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كَلِمَةً » أى ثمرها كلمة « وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا » أى لم تنقص « وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا » أى فىا بينهما « نَهْرًا » أى يسقى الأشجار والزرع ، ويزيد فى بهجة مرآها ، تكميلاً لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا)

وَأَعَزُّ نَفْرًا)

« وَكَانَ لَهُ » أى لصاحب الجنتين « ثَمَرٌ » أى أنواع من المال غير الجنتين . من

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٦] .

(ثُمَّ مَالَهُ) إِذَا كَثُرَ « فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » أَي يَرَاغِمُهُ الْكَلَامَ، تَمْيِيرًا لَهُ بِالْفَقْرِ ، وَفِرًّا عَلَيْهِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أَي أَنْصَارًا وَحِشْمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » أَي بِصَاحِبِهِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيَفَاخِرُ بِهِ . كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَمَحَاوِرَتُهُ لَهُ . وَإِفْرَادُ الْجَنَّةِ هُنَا مَعَ أَنْ لَهُ جَنَّتَيْنِ كَمَا مَرَّ ، إِمَّا لِعَدَمِ تَعَلُّقِ الْغُرُضِ بِتَعَدُّدِهَا ، وَإِمَّا لِاتِّصَالِ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى ، وَإِمَّا لِأَنَّ الدُّخُولَ يَكُونُ فِي وَاحِدَةٍ فَوَاحِدَةٍ . وَقِيلَ : الْإِضَافَةُ تَأْتِي لِمَعْنَى اللَّامِ . فَالْمُرَادُ بِهَا الْعَمُومُ وَالِاسْتِفْرَاقُ . أَي كُلُّ مَا هُوَ جَنَّةٌ لَهُ يَتَمَتَّعُ بِهَا . فَيَفِيدُ مَا أَفَادَتِهِ التَّنْبِيهُ مَعَ زِيَادَةِ . وَهِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا جَنَّةَ لَهُ غَيْرَ هَذِهِ « وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أَي بِمَا يُوْجِبُ سَلْبَ النِّعْمَةِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِجْبُ . وَفِي (الْعِنَايَةِ) ظَلَمَهُ لَهَا إِمَّا بِمَعْنَى تَنْقِصِهَا وَضُرُّهَا ، لِتَعْرِيفِ نِعْمَتِهِ لِلزُّوَالِ وَنَفْسِهِ لِلهَلَاكِ ، أَوْ بِمَعْنَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . لِأَنَّ مَقْتَضَى مَا شَاهَدَهُ التَّوَاضُعَ الْمُسْكِي ، لَا الْعِجْبَ بِهَا وَظَنُّهَا أَنَّهَا لَا تَبِيدُ أَبَدًا . وَالْكَفْرُ بِإِنْكَارِ الْبَعْثِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ « قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ » أَي تَهْلِكَ وَتَفْنَى « هَذِهِ » أَي الْجَنَّةُ « أَبَدًا » لِاعْتِقَادِهِ أَبَدِيَّةِ الدَّهْرِ ، وَأَنْ لَا كُونَ سِوَى مَا تَقَعُ عَلَيْهِ مَشَاعِرُهُ . وَلِذَا قَالَ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا)

« وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً » أَي كَائِنَةً آتِيَةً ، وَقَوْلُهُ « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا » إِقْسَامٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ رَدَّ إِلَىٰ رَبِّهِ ، عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ، كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُهُ ، لِيَجِدَنَّ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِهِ فِي الدُّنْيَا ، تَطْمَعًا وَتَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ ، وَادْعَاءَ لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ . وَإِنَّهُ مَا أَوْلَاهُ الْجَنَّتَيْنِ إِلَّا لِاسْتِحْقَاقِهِ وَاسْتِثْمَالِهِ .

وأن معه هذا الاستحقاق أيما توجه . كقوله^(١) : (إِنَّ لِي عِنْدَهُوَّ لِلْحُسْنَىٰ) (٢) (لَاؤْتَيْنَّ مَالًا وَوَلَدًا) و (مُنْقَلَبًا) أي مرجعاً وعاقبة . أفاده الزمخشري .

قال المهايي : فكفر بالقول بقدم العالم ونفي حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال (لَا جِدْنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) والقول بقدم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته . ويإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة . وبمكس الجزاء ينفي الحكمة الإلهية . ثم بين تعالى ماأجابه به صاحبه المؤمن ، واعظاً له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز ، بقوله :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَهُ وَصَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ وَ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا)

« قَالَ لَهُ وَصَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ وَ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا » أي الذي عيَّره بالفقر ، تعبيراً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُ وَ » أي يراجعه كلام التعمير على الكفر ، محاورته كلام التعمير على الفقر ، في ضمن النسكر عليه « أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » أي يجعل التراب نباتاً ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة « ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا » أي عدّلك وملكك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالوصول ، للإشعار بعلمية ما في حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذي نطق به قوله تعالى عز من قائل^(٣) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ) الآية ، وكما قال تعالى^(٤) (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) الآية . قال ابن كثير : أي كيف تجحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جليلة ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء

(١) [٥١ / فصلت / ٥٠] . (٢) [١٩ / مريم / ٧٧] .
(٣) [٢٢ / الحج / ٥] . (٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

من مخلوقات ، لأنه بمثابة . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء .
ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)

« لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا » أى لكن أنا لا أقول بمقاتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر (لَكِنَّا) بإثبات الألف وصللاً ووقفاً . والباقون بحذفها وصللاً ، وإثباتها وقفاً . فالوقف وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدمت النون في مثلها فصار (لكن) ثم الحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن الوقف على (أنا) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لكن) المشددة . قال الزمخشري : ونحوه قول القائل^(١) :

وَتَرَمِينِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ وَتَقْلِينِي لَكِنَّ إِيَّاكَ لَا أَقْبَلِي

أى لكن أنا لا أقبلك . ويقرب منه قول الآخر^(٢) :

وَلَوْ كُنْتَ ضَبِيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي وَلَكِن زَنْجِيًّا عَظِيمُ الْمَشَافِرِ

أى ولكنك . وقوله تعالى :

(١) الأضداد لابن الأنباري ص ١٦٣ والخزانة ٤/٤٩٠ وقال « لم أقف على تتمته

وقائله ، مع أنه مشهور ، فلما خلا منه كتاب نحوي . والله أعلم . »

الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبري (طبعة المعارف) .

(٢) أنشده سيبويه في كتابه ٢٨٢/١ .

وقائله الفرزدق .

وأنشده في اللسان في مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولكن زنجياً ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا)

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُوَ طَلَبًا)

« وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ » أى هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشري . يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل ، على أنها خبر مبتدأ محذوف . تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أى شئ شاء الله كان) ونظيرها فى حذف الجواب (لو) فى قوله^(١) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَنَا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ) والمعنى : هلا قلت عند دخولها ، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله ، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة ، وإن شاء خربها . وقلت « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتديير أمرها ، إنما هو بمعونته وتأيدته . إذ لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده ، إلا بالله تعالى . والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعبيره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أى مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية « مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا » أى تراباً أمتس لا تثبت فيها قدم ، للاستها

(١) [١٣ / الرد / ٣١] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ وَطَلْبًا » أى حيلة تدركه بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبیه :

كل من قوله تعالى (إِنْ تَرَىٰ) وقوله (أَنْ يُؤْتَيْنِ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يشبها وبمضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)

« وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ۖ » أى ياهلا كه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشري : (أحيط به) عبارة عن إهلاكه . وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى ^(١) (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) .

ومثله قولهم : (أتى عليه) إذا أهلكه . من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليا عليهم . يعنى إنه استعارة تمثيلية . شبه إهلاك جنتيه بما فيهما ، ياهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضا ، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا » أى فعير نفسه أكثر من تعبيره صاحبه وتعير صاحبه إياه . قال الزمخشري : تقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كنى عن ذلك بعض الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدى تعديته بـ (على) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفاً لغواً . ويجوز كونه ظرفاً مستقراً متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [١٢ / يوسف / ٦٦] .

- كما قال الراغب - الغم على مافات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها .
و (العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شئ . فإذا سقط سقط ما عليه .
يعنى أن كرومها المروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم، بحيث قاربت
أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على (يقاب) « يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا »
أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فلم أنه أتى من جهة شره وطغيانه .
فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمْ تَكُن لَّهُ وَفِيَّةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)
« وَلَمْ تَكُن لَّهُ وَفِيَّةً » أى منعمة وقوم « يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى يقدرون
على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى
ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)
« هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك .
(الولاية) بفتح الواو ، أى النصر لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجملة مقررة
ومؤكددة لقوله (وَلَمْ تَكُن لَّهُ وَفِيَّةً يَنْصُرُونَهُ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أوليائه
المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشقى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه
المؤمن ، وصدق قوله : (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
مِّنَ السَّمَاءِ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه .
فلا ينقص لمؤمن درجة ، لدناءته فى الدنيا ، ولا يترك لكافر عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه
ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك . لا يغلب ولا يمتنع منه . أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر . يعنى أن^(١) (بَلِّغْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) كلمة أُلجئ إليها فقلها ، جزعاً مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى^(٢) : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُمْسِكِينَ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون^(٣) «حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَلْسَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله^(٤) : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ويناسبه قوله^(٥) : (هُوَ خَيْرٌ تَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) . و (هنالك) على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم و (الولاية) مبتدأ مؤخر . والوقف على (منتصراً) . وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولاً لـ (منتصراً) وإن الوقف عليه . أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة . أى وما كان منتصراً فى ذلك الوطن الذى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جداً ، مفكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربية . وما كل جازر عربية رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشري ومن تابعه . و (الحق) قرى بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لضمون الجملة المنصوب بمامل مقدر . وبالجر صفة للفظ الجلالة . (عقبا) قرى بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالعشر والمشر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجهها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩١ و ٩٠] .

(٤) [٤٠ / غافر / ١٦] . (٥) [١٨ / الكهف / ٤٤] .

كانا موجودين ولها قصة . ولا دليل في ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضى وجوده . وجوز في هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقد عني بأحد الرجلين في التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر في الآخرة أعلى^(١) (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه في زهرتها وسرعة زوالها « كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتف بسببه وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزهو « هَشِيمًا » أى جافاً يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيحُ » أى تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النمو . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المثل وأبدعها ، ضرب كثيراً في التنزيل ، كقوله تعالى في سورة

(١) [١٧ / الإسماء / ٢١] .

يونس^(١) : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ سَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ...) الآية . وفي الزمر^(٢) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ وَجَنَابِ الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ...) الآية . وفي الحديد^(٣) : (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ مِمَّا بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ...) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وذلك لإعانتها فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الآخروي ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » أي والأعمال التي تبقى ثمراتها الآخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، في الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدى ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما ينيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمس . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢١] . (٣) [٥٧ / الحديد / ٢٠] .

(٢) أفراد (الزينة) مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر في الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية ، لأن زينتها مختصة بها .
 (٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحتها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة ، لاسيما في مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة (١)
 (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) - للإيدان بأن بقاءها أمر محقق لاجابة إلى بيانه . بل لفظ (الباقيات) اسم لها لا ووصف . ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التمرض له خير يتقها .

(٤) تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيميى الخيرية والمبالغة . كذا استفاد من أبى السمود ، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير (الباقيات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراد . ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نُنَادِرُ مِنْهُمْ
 أَحَدًا)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ » أى اذ كر يوم تقلمها من أما كنها ونسيرا فى الجو . كما

(١) [١٦ / النحل / ٩٦] .

يُنْبِئُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (١) : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرٌّ السَّحَابِ » أَوْ نَسِيرَ
أجزاءها بعد أن يجعلها هباءً منبثاً « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » لبروز ماتحت الجبال ، أى
ظهوره ، بنسفها و بروز ماعداه بزوال الجبال والكتب . حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً ، لا بناء
ولا شجر ولا معلم ولا ماسوى ذلك « وَحَشَرَ نَهْمٌ » أى جمعناهم إلى موقف الحساب
« فَلَمْ نُغَادِرْ » أى ترك « مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا صغيراً ولا كبيراً . كما قال (٢) « قُلْ إِنْ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » وقال (٣) « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ
لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ،

بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا)

« وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا » أى مصطفين مرتبين فى المواقف ، لا يحجب بعضهم بعضاً ،

كل فى رتبته ، قاله القاشانى .

وقال أبو السعود : (صَفًّا) أى غير متفرقين ولا مختلطين . فلا تعرض فيه لوحدة

الصف وتعدده .

قال الزمخشري : شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، مصطفين ظاهرين .

يرى جماعتهم كما يرى كل واحد . لا يحجب أحدٌ أحداً « لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ » أى بلا مال ولا بنين . أو لقد بمتنا كم كما أنشأناكم . والكلام على إضمار القول .

أى وقلنا . تقريباً للمفكرين للمعاد ، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد « بَلْ زَعَمْتُمْ » أى

يانكاركم البعث « أَنَّنِي نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا » أى وقتاً لإنجاز ما وعدناكم من البعث

(١) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٤٩ و٥٠] . (٣) [١١ / هود / ١٠٣] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا ما يزدادون به افتضاحاً . و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقالي ، لا إبطالي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَوَيْلَئِنَّآ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ،
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوُضِعَ الْكِتَابُ » أى صحائف الأعمال بين يدي الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يفتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يَوَيْلَئِنَّآ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا في أعمالنا . قال القاشاني : يدعون الهلكة التي هلكوا بها ، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة « مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أى أى شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب في إحصائه كل المعاصي ، وعدة مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه في شيء منها .

قال البقاعي عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة (يعنى في الرسم العثماني) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى مكتوباً في الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى (١) (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا) الآية . وقال (٢) (يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُدْعَى بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ) .

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فيكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد في عقابه . ثم أشار

(١) [٣ / آل عمران / ٣٠] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٣] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ »
 أى العتاة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ » أى فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدو يبنون بكم الفوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « بئسَ لِلظَّالِمِينَ » أى الواضعين الشيء فى غير موضعه « بَدَلًا » بئس البديل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، فى سورة يس^(١) (وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

« مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

(١) [٣٦ / يس / ٥٩-٦٢] .

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك ، من خبائة المحدث والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ » أى وما أشهدت بمضمهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفى الإشهاد كناية عن نفي الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر - أبلغ . إذ من لم يشهد فأنى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكاً ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » أى وما كنت متخذهم أعواناً لخلق ما ذكر ، بل تفردت بحلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاق العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المصلون ، فلا يكونون أرباباً . وإنما وضع (المصلين) موضع الضمير ، ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال ، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى (٢٦) « قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شَرِكٍ وَمَالَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا)

« وَيَوْمَ يَقُولُ » أى الحق تعالى « نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ » أى فى دار الدنيا ، أنهم شركاء ليمنقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريباً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ » أى فلم

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٢ و ٢٣] .

يعينونهم ، لمجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفي إرادته ، مع ظهوره ، تهكم بهم وإيدان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ » أى بين الكفار وآلهمهم « مَوْبِقًا » أى مهالكا يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه (لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً) ويؤيد هذا قوله تعالى (١) (وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَسْكُنُوا لَهُمْ عِرَابًا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) قال ابن كثير : وأما إن جعل الضمير فى قوله (بَيْنَهُمْ) عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) - فهو كقوله تعالى (٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ بِمَا كَفَرُوا قَبْلَ) وقال (٣) (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ) وقال تعالى (٤) (وَأُمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) وقال تعالى (٥) (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ، فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) إلى قوله (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)

« وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ » أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمرة تصريحاً بإجرامهم ، وذمماً لهم بذلك « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها « وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] (٢) [٣٠ / الروم / ١٤] .

(٣) [٣٠ / الروم / ٤٣] . (٤) [٣٦ / يس / ٥٩] .

(٥) [١٠ / يونس / ٢٨ - ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » أى نوعنا في هذا القرآن ، الجامع للمهمات وأنواع السعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل ، ينبه على مراقب السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شا كلهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح النير « وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ » أى عن الماضى السالفة « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » أى طلب إيمانها ، أو انتظار إيمانها ، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و (القبل) يضمّتين بمعنى العيان كما فى قراءة (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء . أو (قبلاً) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحّتين أى مستقبلاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيُحْسِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا)

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوعًا)
 « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أى وما نرسلهم ، قبل إنزال
 العذاب ، إلا لتبشّر من آمن بالزنى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتية سنة من مضى
 « وَيُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » كاقتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى
 ليزيلوا بالجدال ، الحقّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل (الإِدْحَاضُ)
 إزلاق القدم وإزالتها عن موطنها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحقّ المعقول .
 قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحد المستكبره .
 ثم أنشد لنفسه :

أَنَا بَوْحَلٍ لِإِنْكَارِهِ إِزْلِقَ أَقْدَامَ هَذِي الْحُجَجِ
 « وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا » أى وإنذارهم . أو والذي أُنذروا به من العقاب
 « هُزُوعًا » أى استهزاء وسخرية وهو أشدّ التكذيب . وصف بالمصدر بمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ
 يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ،
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدبرها
 والاعتاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى ما عمله من الكفر والمعاصى ،
 وصرف ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
 أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى جعلنا عليها حجباً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أى يفقوا
 على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى وجعلنا فيها ثقلاً يمنهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى (١) : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » .
« وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اهتداء ،
البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا)

« وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى (٢) : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا

مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وقوله (٣) : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)

و (رَبُّكَ) مبتدأ و (الْغَفُورُ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب

الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله

عز وجل (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا) والموعود المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه

فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والسكل لاحق بهم . و (الموائل) الملقب والمنجى .

أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

« وَتِلْكَ الْقُرَىٰ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا »

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٣) [١٣ / الرعد / ٦] .

بالكفر والطغيان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » أى وقتاً معيناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على ما فعل بقریش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يقتروا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يحفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .
فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا» أى اذ كر وقت قول موسى لفتاه ، لا أبرح ، أى لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجد ثمة ، فأتيقن فوات الطلب .

قال المہاجمی أى اذ كر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولست أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى ، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوة . وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومجباله ، وذا غيرة على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)

« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقدا أمره ، وكانا تزوداه .

« فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » أى طريقه « فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » أى مثل السرب فى الأرض ، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة للمطلوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَدَاءٌ نَّا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)

« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى جمع بينهما ، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَدَاءٌ نَّا » أى ما نتغدى به ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِيهِ

إِلَّا الشَّيْطَانَ أَن أذْكَرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

« قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ » أى خبر الحوت . وإسناد النسيان إليهما ، أولاً ، إما بمعنى نسيان طلبه ، والذهول عن تفقده ، لعدم الحاجة إليه . وإماللتغليب ، بناءً على أن الناسى إنما كان يوشع وحده . فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى (١) : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَا أَنسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أذْكَرَهُ » أى لك . و (أن أذكره) بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى وما أنساني ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصل ،

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

والباقون بكسرها « وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا » أى امرأً عَجِيبًا ، إذ صار الماء عليه سرباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ، فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا)

« قَالَ » أى موسى « ذَلِكَ » أى المكان الذى اتخذه سبيله هرباً « مَا كُنَّا نَبْغُ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أمارة المطلب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بمد الغين ، وصلا لا وقتاً . وإثباتها فى الحالين . وبحذفها كذلك « فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعاً لثلا يفوتهما الموضع ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا)

فَوَجَدَا « أى فأتيا الموضع المنسى فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا » التنكير للتفخيم ، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر . وسنتكلم على جملة من نبئه ، بعونه تعالى ، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا » أى آتيناه رحمة لدنية ، اختصاصناه بها « وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا » أى علماً جليلاً آثرناه . وهو علم لدنى يكون بتأييد ربانى . وسند كره إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنى فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَهُ وَمُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

« قَالَ لَهُ وَمُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ » أى أحبك « عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علماً ذا رشد . أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجمل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

[٦٨] (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

« قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل ممتدراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » أى من أمور سترها ، إن صحبتنى ، ظواهرها منا كبر وبواطنها لم يحط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

« قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » أى لأخالفك فى شىء . قال الزمخشري : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبى المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غمزة فى الدين . وأنه لا بد ، لما يستسمع ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

« قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى

لا تفتأخنى بالسؤال عن شىء أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه .

وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ

خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » أى عظيماً من إتلاف السفينة

وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » ذكره الخضر بما تقدم من الشرط .

يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً . وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها .

لأنك لم تحط بها خبراً . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

« قَالَ » أى موسى « لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن المؤاخذة به تفضى

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا « أى وجدت من جهتي عذرًا . إذ أعدرت إلى مرة بعد مرة ،
بخلافك ثلاث مرات ، بتمتضي طبع الاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)
« فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف في تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : الخلاف فيها كالخلاف في جمع البحرين . ولا يوثق بشيء منه « اسْتَفْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » أى امتنعوا من أن يطعموها الطعام الذى هو أحق ضيافتهم عليهم . وقرئ (يُضَيِّفُوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به ، وأضافه وضيّفه : أنزله ليطعمه فى منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ » أى ينهدم بقرب . من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة للمدانة والمشاركة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هى مجاز لغوى مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشري ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُ » أى عمره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لو طلبت على عمك جملاً حتى تنتمش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
« قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَاحِبْنِي) أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا « أى بآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبعاقبته . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلص أبوى الغلام من شره ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز . قال أبو السعود : وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال (بتأويل مافعلت) أو (بتأويل مارأيت) ونحوها ، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر في تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

« أَمَّا السَّفِينَةُ » أى التى خرقها « فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر ، لنقل الناس من ساحل إلى آخر « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقها لأعيبها . لأنهم كانوا يبرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصبًا . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرُوهَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) [٨١] (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

« وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا » أى لو تركناه « أَنْ يَرُوهَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه « فَأَرَدْنَا » أى بقتله « أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ وَ عَنِّ امْرِئٍ ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
 « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا » أى قوتها بالعقل وكمال الرأى « وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا » ليتصرفا فيه « رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ » أى تفضل بها عليهما .
 و (رحمة) مفعول له . أو مصدر مؤكد ل (أراد) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُ وَ عَنِّ امْرِئٍ » أى ما رأيت منى « عَنِّ امْرِئٍ » أى عن اجتهادى ورأى ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى « ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى مآله وعاقبته . قال أبو السعود (ذَلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيدان يبعد درجتها فى الفخامة . و (تَسْطِعْ) مخفف (تستطع) بحذف التاء .

تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :
الأول - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر ، وأنه لا ينافى التوكل . ونسبة النسيان ، ونحوه من الأمور المكروهة ، إلى الشيطان ، مجازاً وتادباً عن نسبتها إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم الشيئة فى الأمر ، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (الثلاث) اعتباراً في التكرار ونحوه . وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة . وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللثام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال . وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لا يكفيه . وأن الغصب حرام . وأنه يجوز إتلاف بمض مال الغير ، أو تعيبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم . وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه . وأنه تجب عمارة ما يخاف منه ، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال في الأرض . انتهى .

وقال البيضاوي : ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه ، فاعمل فيه سرّاً لا يعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للعلم ، ويراعى الأدب في المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية - كما في (فتح الباري) - استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجمُّع المشاق في ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ . وطواعية الخادم لمخدومه . وعذر الناسي . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة . وقيام العذر بالمرّة الواحدة ، وقيام الحجّة بالثانية . وفيها حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه ، لقول الخضر عن السفينة (فأردت أن أعيها) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله (١)

عَلَيْهِ السَّلَامُ (والخير بيدك والشر ليس إليك) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله: (أَهْلَ قَرْيَةٍ) ثم قوله : (لِنَلْمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) .

(١) أخرجه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من

حديث طويل (طبعتنا) .

الثاني - ذكر الناصر في (الانتصاف) : شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة .
فناثرها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد في الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، إلا منذ جاوز الموضوع الذي حدّه الله تعالى له . فعمل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام ، لئنه الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه . وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات ، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيننا ، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس ، ولكن ليشمّر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلاً وآجلاً . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة : وبما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار ، الاتهاب والحمية للحق ، أنه قال حين خرق السفينة (أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ، ولم يقل (لتغرقنا) ففسى نفسه واشتغل بغيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول (نفسى نفسى) لا يلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصيح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قول الزمخشريّ (فَإِنْ قُلْتَ قَوْلَهُ : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) مسبب عن خوف الغضب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ (قلت) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغضب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين . فكان بمنزلة قولك . (زيد ظنى مقيم) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب في إعايتها كونها لمساكين . ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك في غضب السفن . وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جملة مقدماً ، والنية تأخيرها . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي ، والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا . ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله : (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبَّهُمَا) ، (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإعاية إلى نفسه . وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أمر الملك ودبر) ويدل على ذلك قوله في الثالثة : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يحجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث - قال الخفاجي : في إعادة لفظ (الأهل) هنا ، يعني في قوله تعالى : (اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا) إثر قوله (أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) سؤال مشهور . وقد نظمه الصلح الصفدي سائلا عنه السبكي في قصيدة منها :

لأفضل من يهدى به الثقلان	رأيت كتاب الله أعظم معجز
بإيجاز ألفاظ وبسط معاني	ومن جملة الإعجاز كون اختصاره
بها الفكر ، في طول الزمان عناني	ولكنني في (الكهف) أبصرت آية
نرى (استطعماهم) مثله ببيان	وما هي إلا (استطعما أهلها) فقد
مكان ضمير ؟ إن ذاك لـشأن	فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر

يعنى أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة القرية .

أو (استطعمهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذي تحجر فيه أنه ذكر (الأهل) أولاً ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز في القرية ، كقوله^(١) : (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو (أتيت عرفات) ولئن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس مغل . فليس ماهنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعمالها . وأما (الأهل) الثاني فأعيد لأنه غير الأول . وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه . لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فهم غير المراد . أما لو قيل : (استطعمهم) فظاهر . وأما لو قيل (استطعمها) فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب ، كما أثبتوه في محله . وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة في الوصول إلى بعض منها . كما يقال : (زيد في البلد) أو (في الدار) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله^(٢) :

ليت الغرابَ غداً ينبعُ بيننا كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ-

أو لكرهه اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع - أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً (بتسطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال: لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل ، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا . فقال : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال^(٣) : (فَمَا أُسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوا) وهو الصعود إلى أعلاه ، (وَمَا أُسْطَعُوا لَهُ نَقْبًا) وهو أشق من ذلك .

(١) [١٢ / يوسف [٨٢] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح

الحجاج ، ومطلعها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاجِ فانظر بتوضيح ، باكرُ الأحجاجِ-

وفيه هناك (ينعب بالنوى) عوضاً عن (ينعب بيننا) . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٧] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكررت القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ ما لقيه ببيان سببه - فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما أطف قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرق .

الخامس - قال الإمام السبكي رحمه الله : ما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به . لأنه أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين . ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام ، لم يجزله ذلك . وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحروري : كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ما علمه عالم موسى ، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس المحاجة والإحالة على ما لم يمكن قطعاً ، لطعمه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيقياً ولا إيمان حقيقياً . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به . وهو نبي . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأما من استدلل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح . لكن فيما لا يمارض منصوص الشرع . فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة ، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافراً) هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله . والله أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لا تفيد . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطائر الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشب ، والكهل أيضاً . ومن الأخير قول موسى في قصة الإسراء عن النبي ^(١) صلى الله عليه وسلم (أبكى لأن غلاما بعث بعدى) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاري ^(٢) : وجد غلاما يلعبون فأخذ غلاما فذبحه قال موسى : أقتلت نفسا لم تعمل بالحنث . ولكن لانصّ فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالي - تابعي صدوق ابن امرأة كعب الأبحار أو ابن أخيه - إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما في البخاري ^(٣) . ووقع في رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند (النسائي) قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : يا أبا عباس ! إن نوحاً يزعم عن كعب الأبحار أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن منسا . أي ابن إفرائيم بن يوسف عليه السلام . فقال ابن عباس : أسمع ذلك منه يسميد؟ قلت : نعم . قال : كذب نوف . وفي رواية البخاري : كذب عدو الله . وإنما قال ذلك مبالغة في الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٤٤ - باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم ، فيسكل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب . (٣) انظر التخریج السابق .

قال الرازي: كان ليوسف ولدان إفرايم . ومنسا . فولد إفرايم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم . والخضر هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود . واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميزه وتزبل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سنده فى ذلك ، كما فى البخارى^(١) ، ما حدثه به أبى بن كعب ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا . أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع: قال الأكترون: إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا) هو الخضر . قالوا: سمي بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحمر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى . فقال ابن عباس: هو خضر ، فمرَّ بهما أبى بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيته . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: بيننا موسى فى ملاء من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا . فأوحى الله إلى موسى: بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقيته ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر . فقال موسى (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبياً وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قاييل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك . وكله مما ليس فيه إثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبي بقوله تعالى (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الوساطة . وقيل : كان ولياً . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصّدقيّة فهو مقام برزخي ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أنسى للخضر في أجله حتى يكذب الدجال .

قال النووي في (التهذيب) قال الأكثرون : هو حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته ، والاجتماع به ، والأخذ عنه ، وسؤاله ، ووجوده في المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر . وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شيء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلتقي شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة ، واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاري

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ - سورة الكهف ، ٤ - باب

قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب .

وجامع الترمذى . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان في (تفسيره) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبي الفضل المرسى . لأنه لو كان حياً لزمه الجبى إلى النبي ﷺ والإيمان به واتباعه .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حياً ماوسعه إلا اتباعي . وبذلك جزم ابن المناوى وإبراهيم الحربى وأبو طاهر العبادى . ومن جزم بأنه غير موجود الآن، أبو يعلى الحنبلى وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربى، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزى . واستدل على ذلك بأدلة منها قوله تعالى (١) (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) قال أبو الحسين ابن المناوى : بحثت عن تميم الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ما روى في ذلك . والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية . والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسleme بن مصقلة كالتخرافة . وخبر رياح كالريح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لا يخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

قال صاحب (فتح البيان) : والحق ما ذكرناه عن البخارى وأضرابه في ذلك . ولا حجة في قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وهما قاضيان على غيرها ولا يقضى غيرها عليهما . ومن قال إنه نبي أو مرسل أو حتى باق ، لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر مقل (٢) . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) منسوب إلى مقل بن يسار بن عبد الله بن معبر

ابن حرقاق .. الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان: المجلد الخامس ص ٣٢٣ (طبعة بيروت) .

وقال تقى الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترى الجن للإنس في بعض البلاد، مأمثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى^(١) (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنى^٢ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إننى) وكان ذلك جنياً لبس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذى كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حياً على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتى إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبي أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه . كما قال الله تعالى^(٣) (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَا تَبْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قال ابن عباس رضى الله عنه : لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لأن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً، من أن يلبس الشيطان عليهم . ولكن لبس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميتة خرج ، وجاء إليه ، وكلمه في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع - دل قوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) ، على أن من العلم علماً غيبياً وهو المسمى بالعلم اللدنى . فالآية أصل فيه . وقد ألف حجة الإسلام الغزالي، عليه الرحمة، رسالة في إثبات هذا العلم . رد على من أنكرو وجوده . وذكر عليه الرحمة أولاً طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جود الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [٧٢ / سورة الجن / ٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ٨١] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانيّ يحصل من طريقين : أحدهما من التعليم الإنسانيّ والثاني من التعليم الربانيّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانيّ ، فطريق معهود مسلوک محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكر . والتفكر في الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئيّ . والتفكر استفادة النفس من النفس الكلّيّ . والنفس الكلّيّ أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة . كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبه بنفس العالم وتقترب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزراع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذي هو بالقوة كالبذر . والذي هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم في طول المدة . ويحمل التعب في طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجرد من الفوائد بتفكر ساعة ، ما لا تجرد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذا بن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكر . ثم قال قدس سره : والطريق الثاني وهو التعليم الربانيّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحي وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتمسك بوجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويتخذ منها لوحاً ، ومن النفس الكلّيّ قلماً وينقش فيها علومه . ويصير العقل الكلّيّ كالمعلم والنفس القدسيّ كالتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصداق هذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ (١) : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام . فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم الخلق وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالماً . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفادرت الملائكة عليه وتجيروا وتكبروا وقالوا (٢) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات ، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال (٣) : (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) أو صغر حالهم عند آدم وقال علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، ففرقوا في بحر العجز (٤) : (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فقال تعالى (٥) : (يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول (٦) : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال لقومه (٧) : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان علمه أكل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الرباني ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني فقال تعالى (٨) : (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) .

(١) [٤ / النساء / ١١٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٠] .

(٣) [٢ / البقرة / ٣١] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٢] .

(٥) [٢ / البقرة / ٣٣] . (٦) قال في (أسنى الطالب) : سنده ضعيف ومعناه صحيح .

(٧) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١ - باب الترغيب في النكاح ،

حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [٥٣ / النجم / ٥] .

والوجه الثاني - هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس السكلى للنفس الجزئى على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحي . فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً . والذي عن الإلهام يسمى علماً لدنياً . والعلم اللدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصورة فى جوهر النفس السكلى الأوتى الذى هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل السكلى أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارى تعالى من النفس السكلى . والنفس السكلى أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات . فمن إفاضة العقل السكلى يتولد الإلهام . فالوحي حامية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالوحي دون النبى . وكذلك الإلهام دون الوحي . فهو ضعيف بنسبة الوحي ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهام علم الأنبياء والأولياء . فإن علم الوحي خاص بالرسول موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هى قبول النفس القدسى حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والمتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعداء وسبب من الأسباب . والعلم اللدنى يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال (١) : (وَعَلَّمْتَهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) .

ثم قال عليه الرحمة : فإذا أراد الله بعد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس السكلى الذى هو اللوح . فيظهر فيها أسرار بعض المسكنونات . وينتقش فيها معانى تلك المسكنونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

(١) [١٨ الكهف / ٦٥] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيمًا . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى ^(١) : (يُوْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) من عباده . (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) وهم الواصون مرتبة العلم اللدني ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدني هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى ^(٢) : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها - تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكتراها . والثاني - الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبي ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال ^(٣) : (من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم) . والثالث - التفكير . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكير ، يفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة ، يفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران . فالتفكير إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الأبواب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً . كما قال ﷺ ^(٤) : (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) انتهى ملخصاً .

وفي خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأبأها العقل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] . (٢) [٩١ / الشمس / ٧] .

(٣) قال في (كشف الخفاء) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال في (كشف الخفاء) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره : الفاكهاني بلفظ (فكر ساعة)

وقال : إنه من كلام سرى السقطي .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها في هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدونيّ وسند ذكر وجه تلقيبه بذلك « قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله على .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَاتَّبَعَ سَبَبًا)

[٨٦] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا)

« فَاتَّبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بيهجرة الوصل وتشديد التاء .

ف قيل هما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد . وقيل : (اتَّبَعَ) بالقطع يتمدى لاثنتين . والتقدير : فاتبع سبباً سبباً آخر . أو فاتبع أمره سبباً كقوله ^(١) : (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٢] .

وقال أبو عبيدة : اتبع (بالوصل) في السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله^(١) :
 (فَأَتْبَعَهُ وَشِهَابٌ مُّثَقِّبٌ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث في الطلب و (بالوصل)
 مجرد الانتقال . والفاء في قوله : (فَأَتْبَع) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً
 يوصله ، لقوله « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من
 ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة
 وهو الطين الأسود ، وقرئ (حامية) أى حارة . وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ)
 يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الرابع « وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى
 إلى أنه مكذبهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله :
 « قُلْنَا يٰذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُّعَذِّبٌ » أى بالقتل وغيره « وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا »
 بالعفو . ثم بين تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ إِنَّمَا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا)
 « قَالَ إِنَّمَا مَن ظَلَمَ » أى بالبغي والفساد في الأرض بالشرك والضلال والإضلال
 « فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ وَثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ » أى في الآخرة « فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا »
 أى منكرًا لم يعهد مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَإِنَّمَا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ
 أَمْرِنَا يُسْرًا)

« وَإِنَّمَا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ » أى في الدارين « جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠] .

والإضافة. وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أى فله جزء الخصلة الحسنى . ويقرأ بالرفع والتنوين و (الْحُسْنَى) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزء . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزئاً بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزئ بها جزء ، أو تمييز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا)

[٩٠] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

« ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المباني والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المسكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف ل (وجد) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تغرب فى عين حمئة . أو معمول (بلغ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطعت بهم الأرض . وفي التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العدد والعدد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَسْكَدُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثاً معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سد ما بينهما « وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من وراءهما أمة من الناس « لَّا يَسْكَدُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)
« قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جملاً نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه « عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيناً من المال والملك ، أجل مما تريدون بذله . فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى بعملة وصناع وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا ،

حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)

[٩٧] (فَمَا اسْطَعْمُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا)

[٩٨] (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ،

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

« ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ » أى ناولونى قطعه « حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبي الجبلين « قَالَ أَنْفُخُوا » أى فى الأكوار والحديد « حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ » أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإجماع « قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مذاباً ليلصق بالحديد ، ويتقدم البناء به ويشهد « فَمَا اسْطَعْمُوا أَن يَظْهَرُوهُ » أى يملوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَذَا » أى السد « رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي » على القاطنين عنده . لأنهم من شر من سدّ عليهم به ، ورحمة على غيرهم ، لسد الطريق عليهم « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » بدحره وخرابه « جَعَلَهُ دَكَّاءَ » بالمد أى أرضاً مستوية ، وقرئ (دَكًّا) أى مذكوكاً مسويّاً بالأرض . « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » أى كأننا لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والمعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات ، وما يستنبط من تلك الآيات . وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونسكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمِنْ قَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . لئلا من خفى الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل . وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ما قص عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعار والبحار ، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذي لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها : تشييط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تسرت الأسباب ، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز الفقر ، عذراً في الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقدمهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالي الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الالتهال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان في حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو في ريمان الشباب وقوة الفتاء . فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم . ولم يقف في وجهه عدد ولا عدد . وخاض غمرات الردى غير هيب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقي إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمسك منهم ، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بمصا الإذلال ، وتجريمهم غصص الاستعباد والنكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته . فإن ما حكى عن الإسكندر من قوله^(١) (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية في العدل وغاية الإنصاف .

(١) [١٨ / الكهف / ٨٧] .

ومنها: أن على الملك، إذا اشتكى إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز، وصيانة للحرية والتدين، من مخالب التوحش والخراب، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين. كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين في بقاء السد. وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار، لرد غارات البرابرة، وصد هجماتهم.

ومنها: أن على الملك التعطف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ أجره، في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، في ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بحبته. كما تأبى الإسكندر تفضلاً وتكراً.

ومنها: التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام. كقول الإسكندر في مقام تعففه عن أموالهم، والشفقة عليهم^(١) (مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) كقول سليمان^(٢) (فَمَا آتَانِي مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ) وقد قيل: إن دخل الإسكندر من البلاد التي فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية.

ومنها: تدعيم الأسوار والحصون في الثغور، وتقويتها بدوب الرصاص وبوضع صفايح النحاس، خلال الصخور الصم، صدقاً في العمل ونصحاً فيه. لينتفع به على تطاول الأجيال. فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه.

ومنها: مشاطرة الملك العمال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال، تنشيطاً لهمتهم وتجريئة لهم وترويحاً لقلوبهم. وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتباع، ويدبر العمل بنفسه، كما بينه الذكركر الحكيم في قوله^(٣) (ءَاتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا).

ومنها: تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال^(٤) (هَذَا رَجْمَةٌ مِّن رَّبِّي).

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥]. (٢) [٢٧ / النمل / ٣٦]. (٣) [١٨ / الكهف / ٩٨].

ومنها : الإعلام بالدور الأخرى ، وانقضاء هذا الطور الأولى ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقى والنعم السرمدى . ولذا قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه فى هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جلياً حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشرى ، لاسيما فى زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتقدمة وغير المتقدمة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة . كما كان يرى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المكدونى اليونانى . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبغفه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملق إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيقه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعى المات ، وسرت بجسمه قوى الشبيهة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله .

التنبيه الثانى - فى ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليس ، وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) فى الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدونى وهو ابن فيليس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين . فذو القربين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يفرغ عبادة الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدوني ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركاً يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليبس بنى الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا . وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام ، فغير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين ، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء في ترجمته - كما في طبقات الأطباء وغيرها - أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك . فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يقتل أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فتوروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم ، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما في (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه . كالنجاشي ملك الحبشة . فإنه جاهر بالإيمان بالنبي ﷺ . وشعبه وأهل مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاده والحكام قبله . فإن المعنى في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضي صاعد : كان فيثاغورس - أستاذ

سقراط - يقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد ، في ثواب أو عقاب. على رأى الحكماء الإلهيين .
فتأمل قوله (على رأى الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازى : (إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قوياً . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتمظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابماً لمذهب فدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه . وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حرراً فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويمتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتية من تنور الفكر وحرية الضمير وتفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه (أعنى أرسطاطاليس) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لاسترة فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالاً . وللرازى فرص يفتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها - ساحم الله - فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبيه الثالث : اختلف فى سبب تلقيه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا .
يعنى جانبها شرقياً وغربياً . أو لأنه كان له قرنان أى ضفيرتان . أو لأنه ملك الروم وفارس .
قال الزمخشري : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشى أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان) ثم قوله : (وبينما كنت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التي هي إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم . بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبية الرابع - قال الرازي : اختلفوا في ذى القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبياً . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول - قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) والأولى حمله على التمكين في الدين . والتمكين الكامل في الدين هو النبوة .

الثاني - قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ومن جملة الأشياء النبوة . فحققت في العموم في قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) هو أنه تعالى آناه من النبوة سبباً . الثالث - قوله تعالى : (قُلْنَا يَذَّابِقُ الْفُجَّارِ يَوْمَ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً .

ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبياً . انتهى . ثم قال الرازي بعدد : يدل قوله تعالى (قُلْنَا يَذَّابِقُ الْفُجَّارِ) على أنه تعالى تكلم معه

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبياً . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على أسنة بعض الأنبياء - فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيل وتخصيص . وأما تعمق الجرى وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : (قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْآنِ) فقد معنا أنه كفاية عن تمكينه تعالى له منهم . لأنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لسكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى

يسوغ له نقضه باجتهد آخر . ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة . لأننا نقول به ، ما لم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر

في بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين - ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لسكان قريباً . فتكون نبوته من القسم الثاني وهو

الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء في الحديث تسمية صاحبه (١) محدثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً في الإسلام ، لأنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار .

التنبية الخامس - حكى في قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْآنِ) قولان في أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجح الأول من وجهين :

أولهما - أن للإسكندر عند اليهود شأنًا وقدرًا . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس ، خرج إليه رئيس أخبارها وقدم إليه الطاعة . فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة

فتمرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة في كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

(١) يشير إلى الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة في : ٦٠ -

كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبي ﷺ أنه قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما - أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .
التنبيه السادس - قالوا: المراد ب(العين الحمئة) البحر المحيط . وتسميته عينا لكونه بالنسبة
لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس في مظهره تغرب
في البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهي لا تفارق
فلسكها .

ولالإمام ابن حزم عليه الرحمة - رأى آخر في الآية . ذكره في كتاب (الملل) في بحث
كروية الأرض قال : ذو القرنين هو كان في العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك في البحر)
تريد أنك إذا رأيته كفت أنت في البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار
عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشعوى إذا كانت من آخر رأس الجدى
إلى آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان - مرئى مشاهد . ومقداره ثمان وأربعون
درجة من الفلك . وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسى أقل من مقدار السدس .
يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل وتيف . وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم
(عين) البتة . لا سيما أن تكون (عينا حمئة) حامية . وباللغة العربية خوطينا . فلما تيقنا أنها
(عين) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشى فيها من المغرب إلى العين المذكورة .
وانقطع له إمكان المشى بعدها لاعتراض البحار له هنالك . وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين
وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً
أو مضطجماً . ومن هذه صفته ، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض ، بمقدار مكان المغرب
كلها ، لو كان مغيبها في عين من الأرض . كما يظن أهل الجهل . ولا بد من أن يلقى خط بصره
من حذبة الأرض ، ومن نشز من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمداد ، إلا أن يقول قائل :
إن تلك العين هي البحر . فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة (عينا حمئة) ولا حامية . وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح في الفلك . وأنها إنما هي من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يتناقض . فلو غابت في عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أوفى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو في العين الحمئة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر في المغرب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبية السابع - قال الرازي : الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال . وقيل : جبلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان في منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبري في (تاريخه) أن صاحب أذربيجان ، أيام فتحها ، وجه إنسانا إليه من ناحية الخزر . فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد في كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم ، فبعث بعض الخدم إليه ليأينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه . فوصفوا أنه بقاء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من العمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازي .

وقال الإمام ابن حزم في (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) في تنفيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر في القرآن سد بأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف في أقصى الشمال

في آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصراني . وقد ذكر يأجوج ومأجوج والسدّ أرسطاطاليس في كتابه في (الحيوان) عند كلامه على الفرائيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه السمي (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسي وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس . فهيات خبر من خبر . وحتى لو خفي مكان يأجوج ومأجوج والسد ، فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو في الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل . واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان ، فأدخله مدخل في عنصر الامتناع بلا برهان - فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهر . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإعسا الشبان في الحال الممتنع الذي تكذبه الحواس والعيان أو بديهية العقل . فن جاء بهذا فيما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر . ونعوذ بالله من البلاء . انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذي القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة . أماقوله تعالى : (هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً) فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القويّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السدّ ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جماء دكاً في ملح البصر . فرادى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاعتزاز بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لاشيء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبق إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أي وقت كان ، وكان هذا السدّ موجوداً ، دك الله دكا . وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده . وكالثورات البركانية كما قلنا . وليس في الآية ما ينافي ذلك . وأما قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض ، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع في اللغة . ومنه قولك (فتحو البلاد) وقوله تعالى (١) (فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لأبواب لهم . بل هم من كل حذب ينسلون . والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض ، بمد أن انتشروا فيها ، من الإفساد والنهب والقتل والسبي . والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتي دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ (السّد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سدّ حديديّ قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السدّ كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه في نهاية الأرض . وذلك بحسب ما عرفوه منها . ومن ورائه قبيلتنا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء في (صفوة الانتصار) أن السور الذي وصلوا إليه أيام الواثق من بني العباس ، هو

مسور الصين الذي هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً ، وسمكة من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفي أما كن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب في جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد في الآية ، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤول صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والنشورية . ويكون وعد الله الذي يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولاشك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد في الممالك . كما في عهد جنكزخان ، وما عناه هو وأصحابه في الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء في الجغرافية العمومية ، في المقالة السابعة والأربعين في تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أى أهالى كوه قاف ، أى جبل قاف : إن في تلك الأنطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالجزء الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذى كان يخشى منه هجوم المتبرين على كل من دولة الرومانيين والمعجم . ثم إن الحصن الذى كان يسد هذا الجواز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر .

ثم قال : وهناك حكاية مشهورة بين أهالى (كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبرين وهذا السد العظيم تارة يمزى لإسكندر ، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبيه الثامن - قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للمعجمة

والتعريف . ويجوز هزها وترك هزها . وقيل : هاء بيان . ف(يا جوج) يفعل مثل يربوع .
(ومأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهما من (أَجَّ الظليم) إذا أسرع . أو من (أجت النار)
إذا التهب . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث - أي للقبيلة كججوس . فالكلمتان من أصل
واحد في الاشتقاق . وعلى العجمة ، لا يتأني تصريفه . ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربياً ،
كافي (تذكرة أبي علي) .

قال الرازي : واختلفوا في أي الأقسام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل :
يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والدليم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر
الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب
ب(جبل قاف ، في إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق)
فمربهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما في
كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق في روسيا وآسيا .

التنبه التاسع - توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن في مصنفاته من الرواة ، في
تخریج ما روى عن يأجوج ومأجوج . وكله إما من الإسرائيليات أو المنكرات أو الموضوعات .
ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربع مائة ألف أمة . لا يموت الرجل
منهم حتى ينظر إلى ألف ذكرين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدي في
(الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال : موضوع منسكراً ، ومحمد بن إسحاق العكاشي كذاب
يضع ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير ههنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً ، في سير ذي القرنين
وبنائنه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونسكاراة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم
وقصر بعضهم وأذانهم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدھا . انتهى .
فجزى الله البخاري أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشترطه الصحة في
الروايات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم
صدق قوله : (أن راوى الضعاف غاش آثم مضلّ) وبالله المستعان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)
« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا »
أى نفخ فيه للبعث في النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً
لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في
بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور ، وليس علينا أن
نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم
الغيب ، أى الأمور الغيبية عنا ، التي لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ جمعنا الخلائق كافة
« لِلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تميظاً وزفيراً
« عَرْضًا » أى فظيماً هائلًا لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع
أنها بحرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفي عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكايه . لكونه أبلغ في تعجيل
الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » تمثيل
لتعاميمهم عن الآيات الدالة على توحيدده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصاميمهم
عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أبلغ من (وكانوا صمًا)
لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كأنهم أصميت أسمعهم فلا استطاعة بهم
للسمع . أفاده الزمخشري . وفي توصيفهم بالجلتين نكتة أخرى ، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية
عن الأولى ، كما زعم ، وذلك - كما حقه الشهاب - إن قوله تعالى : (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)
لما أفاد أنهم كفاقدى حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة
أو نحوها ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم
لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعنى (الذين) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جرى به
لذمهم بما في حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك
إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع
كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به في الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ،

إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا)

« أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ » هذا رجوع إلى

طليعة السورة في قوله تعالى^(١): (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع ، جىء بالاستفهام الإنكارى ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم . ومفعول (حسب) الثانى محذوف . أى أحسبوا اتخاذهم نافعاً لهم؟^(٢) (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كما قالوا^(٣) (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ) « إِنَّا أَعْتَدْنَا » أى هيأنا « جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا » أى شيئاً يمتعون به عند ورودهم . و(النزل) ما يقام للنزول أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به فى جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم فى حسابهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد المتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والدخر ، جهنم عدة . وفى إيراد (النزل) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أعموج له . أى لأن الضيف لا يستقر فى منزل الضيافة . وينقل إلى ما هو إهناء له فى دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيذوقون ما هو أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا)

[١٠٤] (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا)

[١٠٦] (ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا)

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »

(١) [١٨ / الكهف / ٤] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسالهم « وَرَلَقَابِهِمْ » أى بالبعث والحساب والجزاء « فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » لكفرهم المذكور « فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » أى فنزدرهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمره « ذَلِكْ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو (ذلك) مبتدأ ، والجملة خبره ، والعائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا » أى مهزوءاً بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنعكال . ثم بين ما المقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[١٠٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحوّلًا ، لبلوغهم النكال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السردى ، لا يختارون عن مقامهم متحوّلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » أى لكتابتها « لَنَفِدَ الْبَحْرُ » أى مع

كثرته ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي » أي لكونها غير متناهية ، فلا تنفذ نقاد المتناهي .

قال أبو السعود : وفي إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷻ في الموضعين ، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليهما لا يخفى . وإظهار (البحر) و(الكلمات) في موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » أي بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفد أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن ، جرى به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى (٨) : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .
تنبیه .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لانهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالهلشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حتى وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص . ومن تكلم بمشيئة أهل من لا يتكلم بمشيئة . فكيف يتصف الخلق بصفات الكمال دون الخالق؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته . بل كلامه مخلوق

منفصل عنه. والكلاية يقولون: هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة، ولا يكون بمشيئته. والأشعرية يقولون: إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد. وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. مبتدعة مبنية على أصل واحد. وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية. فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته. وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل. والقرآن الكريم يدل على بطلانه في أكثر من مائة موضع. وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب. والصواب في هذا الباب وغيره، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها؟ أنه سبحانه لم ينزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته. وأن كلماته لا نهاية لها. وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى. وإنما ناداه حين أتى، لم يناده قبل ذلك. وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم. وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته. ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته. ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال، باطلة. وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات، باطلة. هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان.

وقال أيضاً في قوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي) الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل في المستقبل . فإن نعم الجنة دائم لا تقادله . فما من شيء إلا وبعده شيء بلا نهاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ آئِمَّاتِ إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ) (أَحَدًا)
 «قُلْ» أي لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ آئِمَّاتِ إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ وَاحِدٌ» أي خصصت بالوحي وتميزت عنكم به. (فَمَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءِ رَبِّهِ «أى يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَمْعَلْ عَمَلًا صَالِحًا » أى فى نفسه، لا ثقابذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» أى من خلقه إشراكاً جلياً. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إشراكاً خفياً. كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتمصيل المال والجاه. قال أبو السعود : وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمّر فى الموضوعين ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلمية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً .

ودلت الآية - كما قال ابن كثير - على أن للعمل المتقبّل ركبتين : كونه موافقاً لشرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركاً أصغر، ثبت فى السنة ، وصح فيها حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلى ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .